ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا[1] إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾

وحين يُورد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب[2] ، و « بُنى » تصغير « ابن » .

أما حين يأتى القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابنى » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذى اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى .. ۝٤٥ ﴾ [هود]

وكلمة « يا بنى » بما فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتى من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بنى » يُفْهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلىء بالحنان على الفرع ، وفى نفس الوقت نجد أىَّ أب يقول : مَنْ يأكل لقمتى عليه أن يسمع كلمتى .

---

(١) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم : ٢/١٨٠] .

(٢) ورد هذا الخطاب فى القرآن ٦ مرات فى سورة هود ويوسف ولقمان فى ثلاث آيات والصافات .

ولنعلم أن الكون وما فيه ومَنْ فيه وظيفته أمام الله الطواعية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بنى ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفزع يوسف مما يُزعجه أو يُسىء إليه ؛ أو أى أمر مُعْضَل[1] ؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو - الأقدر فى نظر الابن - على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. ۝ ﴾ [يوسف]

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هى « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤى ؛ فرؤيتك وأنت يقظانُ يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتفق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهى تأتى للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء فى « رأى » والاختلاف فى الحالة ؛ هل هى حالة النوم أو حالة اليقظة . وفى الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

---

(١) الأمر المعضل : الصعب الشديد الضيق . عضَّل عليه فى أمره تعضيلاً : ضيَّق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظلماً . وعضَّل بهم المكان : ضاق . وعضَّلت الأرض بأهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم . [لسان العرب ـ مادة : عضل] .

« تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة »[(١)] .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في اليقظة « التاء » وهي عمدة التأنيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التأنيث .

ولا يقدح[(٢)] في كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة في القرآن ، حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِجَ[(٣)] به ﷺ ؛ فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً[(٤)] لِّلنَّاسِ .. ⦗٦٠⦘ ﴾ [الإسراء]

ولكن مَنْ يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ، ولكنه حدث في الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها «فتنة للناس » .

---

(١) علامات التأنيث اللفظية ثلاث هي :
– تاء التأنيث : تدخل على الفعل والاسم ، مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل للتفرقة بين المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل في الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : حائض ، مرضع ، ثيب.
– ألف التأنيث المقصورة : وهي ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة المؤنثة .
– ألف التأنيث الممدودة : وهي مقطع مكون من همزة تسبقها ألف مد مفتوح ما قبلها ، وهي تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صحراء ، كبرياء ، عاشوراء . راجع : القواعد الصرفية ـ الدكتور على أبو المكارم ـ طبعة ١٩٧٩ ص : ٦٢ ـ ٦٥ .

(٢) قدح : أثَّر . يقال : قدح الشيء في صدري : أثَّر . وفي حديث على كرم الله وجهه : يقدح الشك في قلبه بأول عارضة من شبهة . [لسان العرب ـ مادة : قدح] .

(٣) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع . والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود . والجمع معارج ، قال تعالى : ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ⦗٣٣⦘﴾ [الزخرف] أي : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى . [القاموس القويم باختصار : ١٣/٢] .

(٤) قال الأزهري وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . [انظر : لسان العرب ـ مادة : فتن] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال ؛ لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عَبَّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .

وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. ۝٥ ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كأب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه[1] .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها الشمس والقمر وأحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له ؟

نقول : لا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علِم تأويل الرُّؤيا ؛ وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع ؛ ولا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لَفهِموا المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيداً يُصيبه بمكروه .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله بضيقهم إنْ علِموا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والأم مع الإخوة .

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٤٧) : « هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط[1] ؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب عُلُو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التى تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسَّليقة[2] ؛ لأن الشرير بالسَّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخَيِّر فتتنزَّل عنده حوادث السوء .

والمثل على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب فى أن يصفع إنساناً آخر صفعة على الخَدِّ ؛ لكنه بعد قليل يفكر فى تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يُزيد العدوان بأن يصوِّب عليه مسدساً ؛ وهكذا يُصعِّد الشرير تفكيره الإجرامى.

أما الخَيِّر فهو قد يفكر فى ضرب إنسان أساء إليه « علقة » ؛ لكنه يُقلِّل من التفكير فى رَدِّ الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير فى ضربه صفعتين بدلاً من «العلقة » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عمَّنْ أساء إليه .

وإخوة يوسف – وهم الأسباط[3] – بدءوا فى التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم :

---

(١) الأسباط : جمع سبط ، والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها أغصان كثيرة ، ونقل ذلك مجازاً إلى شجرة النسب . فالسبط : القبيلة المتفرعة من أصل واحد . والأسباط : هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثنى عشر : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما .. ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم : ١/ ٣٠٠].

(٢) السليقة : الطبيعة والسجية ، وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا بتعلُّم . وقيل : بالسليقية ، أى : بطبعه الذى نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب ـ مادة : سلق] .

(٣) ذكرت كلمة الأسباط فى القرآن ٥ مرات منها ٤ مرات يُعنَى بها أسباط كانوا أنبياء ، والموضع الخامس الأسباط بمعنى أصول قبائل بنى إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء يعقوب هو أول السبط أو ذاك.

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ .. ۝٩ ﴾ [يوسف]

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المُؤْلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ (١) أَرْضًا يَخْلُ (٢) لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ۝٩ ﴾ [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه فى الجُبِّ (٣) لعل أن يلتقطه بعض السَّيارة (٤) . فقالوا :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ (٥) الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ۝١٠ ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزَّلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا فى نجاته .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

---

(١) طرح الشيء يطرحه طرحاً : نبذه وألقاه ، قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ۝٩ ﴾ [يوسف] أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ۝٩ ﴾ [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ، ويتجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشتغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/٢٠٩] .

(٣) الجب : البئر التى لم تُبْن بالحجارة . قال الليث : الجب : البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجَبَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شيء منها مُقَبَّبة . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

(٤) سيَّار : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسيارة : صيغة مبالغة للمؤنث . والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ۝١٩ ﴾ [يوسف] أى : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ۝٩٦ ﴾ [المائدة] للمسافرين [القاموس القويم ١/٣٤٠] .

(٥) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى . والغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ۝٣ ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ٢/٦٤ ، ٦٥ باختصار] .

﴿ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا.. ⑤ ﴾ [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لِمَنْ لا تقوى على مُجَابهته، ولا يكيد إلا الضعيف ؛ لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقَال : إن كيد النساء عظيم ؛ لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ⑤ ﴾ [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ؛ عكس آدم الذى قَبِل الله توبته ؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله لَيُغْوِينَّ الكُلَّ ، واستثنى عبادَ اللَّه المخلصين[1] .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعاننى الله على شيطانى فأسلم »[2] .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوةٌ مُبينة[3] . أى : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة :

﴿ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ.. ⑰ ﴾ [الأعراف]

---

(١) حكى رب العزة هذا عن إبليس اللعين أنه قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ⑧② إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ⑧③ ﴾ [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٨٥) .

(٣) بان الشيء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بيِّن وهى بيِّنة أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البيِّن والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسَّر . وبين الشيء وأبان وبيَّن واستبان : لم يَعُدْ خافياً . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ①⑥⑧ ﴾ [البقرة] . [القاموس القويم ١/ ٩١ ، ٩٢ بتصرف] .

ولم يَأْتِ ذكْر للمجيء من الفوقية أو من التحتية ؛ لأن مَنْ يحيا في عبودية تحتية ؛ وعبادية فوقية ؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .

ونلحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً يوسف عليه السلام في هذه الآية :

﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. ۝٥ ﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَضْح[1] نبوة يعقوب عليه السلام على لسانه ؛ لأن هناك فارقاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعني أن الشرَّ المستور الذي يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى.

أما ﴿ فَيَكِيدُوا[2] لَكَ .. ۝٥ ﴾ [يوسف]

فتعني أن كيدهم الذي أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ، ويأتي بالخير لك .

ولذلك نجد قوله الحق في موقع آخر بنفس السورة :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. ۝٧٦ ﴾ [يوسف]

أي : كِدْنا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) أصل النضح : الرشح . يقال : نضح الرجل بالعرق نضحاً : فضَّ به . ونضحت العين : فارت بالدمع وعيناه تنضحان ونضحت الخابية والجَرَّة تنضح : إذا كانت رقيقة فخرج الماء من الخزف ورشحت . [لسان العرب ـ مادة : نضح بتصرف] .

(٢) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد مصدر ويُطلق على العمل أو الوسيلة التي يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم ٢/١٨٠] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ (١) وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ (٢) وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

أى : كما آنسك الله بهذه الرؤيا المُفْرحة المُنْبِئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتبيك ربك ؛ لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحابَ الجاهِ والنفوذ يلتفتون إليك .

ومعنى تأويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن الرُّؤى تأتى كطلاسم ، ولها شَفْرة رمزية لا يقوم بِحلِّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك ؛ فهى ليست علْماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) اجتبى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه ، قال تعالى : ﴿ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى] أى : يصطفى ويختار من يشاء من خلقه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

(٢) الحديث : الكلام وجمعه أحاديث ، والأحاديث جمع أُحْدوثة ، وهى الحديث العجيب . والحديث قد يُطلق على الرُّؤى والأحلام ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ..﴿٦﴾ ﴾ [يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ..﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون] فهو كناية عن الموت والهلاك ، أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يتحدَّث الناس عنهم . [القاموس القويم ١/١٤٥] .

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض ؛ حين يُوجد الجَدْبُ[1] ، ويعُمُّ المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⑥ ﴾ [يوسف]

فكلُّ ما تَمَتَّع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولاً .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⑥ ﴾ [يوسف]

بمعنى الا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففى حياة يوسف منصبٌ مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التى يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⑥ ﴾ [يوسف]

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْراك[2] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑥ ﴾ [يوسف]

يُذكِّر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب أن يُحوِّله إلى عداوة ؛ لأن النِّعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم آلُ يعقوب ؛ هم وأبناؤهم حفَدة يعقوب ، وسينالهم بعضٌ من عزٍّ

(١) الجدب : القحط وهو نقيض الخصب . والأرض الجدبة : التى ليس بها قليل ولا كثير ولا مَرْتَع ولا كلأ ، والأرض المجداب : التى لا تكاد تُخْصب . [لسان العرب ـ مادة : جدب] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥٠) « ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⑥ ﴾ [يوسف] أى : بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك . وقيل : بإنجائك من كل مكروه » .

يوسف وجاهه وماله ، كما أتمَّها من قبل على إبراهيم الجد الأول ليوسف باتخاذه خليلا[1] لله ، وأتمَّ سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة .

وهو سبحانه أعلمُ بمَنْ يستحق حمْل الرسالة ، وهو الحكيم الذى لا يترك شيئاً للعبث ؛ فهو المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

أى : أن يوسف صار ظَرْفاً للأحداث ، لأن « فى » تدل على الظرفية[2] ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظْرف فيه شىء آخر ، فكأن يوسف صار ظَرْفاً ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين فيها .

و « يوسف » اسم أعجمى ؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف » أى : ممنوع من التنوين فلا نقول : فى يوسفٍ .

و ﴿ يوسُفَ وإخْوَته آياتٌ للسَّائلين ﴿٧﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن ما حدث إنما يُلفت لقدرة الله سبحانه ؛ فقد أُلقى فى الجُبِّ وأُنقذ ليتربى فى أرقى بيوت مصر .

---

(١) قال تعالى : ﴿ واتَّخذَ اللهُ إبْراهيمَ خليلاً ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء] . وسُمِّى إبراهيم عليه السلام خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها . [ابن كثير ٥٦٠/١] .

(٢) قال ابن هشام الأنصارى فى مغنى اللبيب (١٤٤/١) : « فى : حرف جر له عشرة معان منها : الظرفية وهى إما مكانية أو زمانية ، وقد اجتمعتا فى قوله تعالى : ﴿ الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الروم] » .

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهى تَرِد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، وتلك الآيات الكونية رصيد للنظر فى الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ؛ فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتناهية ؛ لا بُدَّ أن تفكر فى ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هى المعجزات الخارقة للنواميس التى يأتى بها الرسل ؛ لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التى صارت بَرْداً[1] وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الماء الذى انفلق وصار كالطود[2] العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود به آيات القرآن الكريم .

وفى قول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف]

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء] والبرد : ضد الحر . والبرودة : نقيض الحرارة . قال على ابن أبى طالب : أى لا تضر به . قال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال : ﴿وَسَلَامًا ۝٦٩﴾ [الأنبياء] لآذى إبراهيم بردها . وقال جويبر عن الضحاك : ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء] قالوا : صنعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب ، فأصبح ولم يصبه منها شىء حتى أخمدها الله » [انظر تفسير ابن كثير ١٨٤/٣] .

(٢) الطود : الجبل الثابت العالى . قال تعالى : ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذى كَادَ له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كَيْدهم انقلب لصالح يوسف .

وفى كل ذلك سلْوى[1] لرسول الله ﷺ ؛ لتثبيت فؤاده ؛ فلا يُعير بالاً لاضطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم فى نَفْيه إلى الشام ، ومحاولتهم قَتْله ، ومحاولتهم مُقاطعته ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون فى ظلال كَنفه .

إذن : فلا تيأس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته ، ولا تستبطىء نصر الله ، أنت ومَنْ معك ، كما جاء فى القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ[2] وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد القهر الذى أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التى رآها يوسف عليه السلام .

ويُقال : إن رؤيا يوسف تحققت فى فترة زمنية تتراوح بين

---

(١) سلأنى من همِّى تسلية وأسلانى أى كشفه عنى . وانسلى عنى الهمُّ وتسلى بمعنًى أى : انكشف . [لسان العرب - مادة : سلا] .

(٢) الباساء : الفقر والشدة ، قال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ .. (١٧٧) ﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة . والضراء : طول المرض أو أى شدة أو نقص الأموال والأنفس ، وذلك مؤلم محزن وهو ضد السراء . [القاموس القويم ١/٥٣ ، ٣٩٢] .

أربعين سنة وثمانين عاماً[1] .

ولذلك نجد رُؤْيَا الخير يطول أَمَدُ تصديقها ؛ ورُؤْيَا الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهي ، لأنها لو ظلَّتْ دون وقوع لأمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسةَ تخيُّل الشر بكُلِّ صوره.

والشر لا يأتي إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله مُتخيِّلاً لما سوف يأتيك من الخير بألوان وتأويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[2] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[3] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

---

(١) • قال أبو عثمان النهدى عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة . وقال الحسن : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجرى على خديه » . وهذا يوافق ما قاله ابن كثير في تفسيره (٢/٤٩١) .

(٢) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوَّهه أو مَحَاهُ وأزاله . وطمس عينه : أعماها . وطمس على عينه : أعماها مضمّنة معنى غطّى وغشى عليها . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ .. (٦٦) ﴾ [يس] .[القاموس القويم ١/٤٠٦ باختصار].

(٣) شدَّه : قوَّاه . وشد الحبل : ربطه ربطاً مُحكماً . وشد أسره : قوّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ، أى : أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان] أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ.. (٢٠) ﴾ [ص] أى : قويناه . [القاموس القويم ١/٣٤٣ ، ٣٤٤ بتصرف] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) ﴾ [يوسف]

فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آية للسائلين » أى : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا فى القرآن مثلاً على جَمْع الأكثر من آية فى آية واحدة ، مثلما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً[1] .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون]

مع أن كلاً منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه فى آخر هذه الآية أن القصة : ﴿ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ (٧) ﴾ [يوسف]

والسائلون هنا إما من المشركين الذين حرَّضهم اليهود[2] على أنْ

---

(١) أى : انه سبحانه جعلهما آية للناس ، أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . قاله ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية (٣/٢٤٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥٠) : « أى : لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خُبِّروا به ، لأنهم سألوا النبى ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبره عن رجل من الأنبياء كان بالشام أُخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وَجَّه اليهودُ من المدينة يسألون عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ، فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة ، فكان ذلك آية للنبى ﷺ بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت » .

يسألوا رسول الله ﷺ عن مسألة يوسف ، وإما من المسلمين الذين يطلبون العِبَر من الأمم السابقة ، وجاء الوَحْىُ لينزل على الرسول الأمىِّ بتلك السورة بالأداء الرفيع المُعْجِز الذى لا يَقْوَى عليه بشر .

وأنت حين تقرأ السورة ؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة ، هاتْ أنت أىَّ إنسان ليتكلم ثُلث ساعة ، ويظل حافظاً لما قاله ؛ لن تجد أحداً يفعل ذلك ؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ ما أُنزل إليه من ربه ، ويُمليه على صحابته ويصلى بهم ؛ ويقرأ فى الصلاة ما أُنزل عليه ، ورغم أن فى القرآن آياتٍ متشابهات ؛ إلا أنه ﷺ لم يخطىء مرة أثناء قراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ[1] الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وكذلك قول الحق سبحانه :

---

(١) عزم الأمر : من المجاز أى نفذ بعزيمة قوية من صاحبه . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ .. (٢١) ﴾ [محمد] فعل لازم أى : نفذ وتقرر وثبت بعزيمة قوية منكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ (٢٢٧) ﴾ [البقرة] أى : عقدوا النية على إتمامه . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) ﴾ [آل عمران] أى : من الأمور الجادة الرشيدة التى لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التى يفعلها أصحاب العزم القوى . [القاموس القويم ٢/ ٢٠].

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)﴾ [الحجر]

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧)﴾ [الطور]

فكيف يتأتَّى لبشر أُمىٍّ أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذى أنزل عليه الوحى قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ[2] مُّبِينٍ (٨)﴾

ولا بُدَّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها ؛ فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً ؛ وقد تكون من ناحية الأب دون الأم، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا[3]

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة . قال تعالى عن إخوة يوسف قولهم : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ..(٨)﴾ [يوسف] . عصبه : ربطه ربطاً شديداً . وقوله : ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾ [هود] أى : شديد العَصْب يعصب الناس ويُضيّق عليهم أو شديد الحر . شديد الهول . [القاموس القويم ٢/٢٢] .

(٢) الضلال : النسيان والضياع . وقد يطلق الضلال على عمل خلاف الأَوْلى كقوله فى قصة يوسف : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)﴾ [يوسف] أى : شدة تعلقك بيوسف وحزنك عليه فهو فى نظرهم ضلال . [القاموس القويم : ١/٣٩٥] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٥١/٤) : « أسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويساخر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر : دان ونفتالى وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً . قال السهيلى : أم يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين . وقيل : فى اسم الأمتين ليا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل والأخرى لأختها ليا » .

عشـر : سبعة من واحـدة ؛ وأربعة من اثنتيـن : زلفى وبلهه ؛ واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا.. (٨)﴾ [يوسف]

وحرف اللام الذى سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُـبِّه لنا . والتوكيد لا يأتى إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مـخـتلفـون فى أمـر يوسف عليـه السـلام ؛ فأحـدهم يريد أن ينتـقم من يوسف ، وآخر يقـترح تخـفيف المـسألة بإلقائه فى الجب[1] ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفى قولهم لَمْحة من إنصاف ؛ فـقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعضٌ من غـفلة البشر ؛ لأنهم كـان يجب أن يلتمسـوا سبب زيادة حُبُّ أبيهم ليوسف وأخيه .

فيـوسف وأخوه كانوا صـغَاراً وماتت أمهـما[2] ؛ ولم يَعُدْ لهم إلا الأب الذى أحسَّ بضرورة أن يجـتمع فيه تجاهـهـما حنانُ الأب وحنانُ الأم ؛ ولأنهما صغارٌ نجد الأب يحنُو عليهما بما أودعه الله فى قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخْل ليـعقوب فيه ؛ بـل هى مسألة إلهيـة أودعها الله

---

(١) الجب : البئر التى لم تُبْن بالحجارة . قال الليث : هى البئـر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجبْبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شىء منها مُقبَّبة . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

(٢) ماتت أمهما راحيل فى نفاس بنيامين . ذكره القرطبى فى تفسيره .

فى القلوب بدون اختيار ؛ ويُودعها سبحانه حتى فى قلوب الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة ـ على سبيل المثال ـ إن اقتربَ أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛ تهجم على هذا الذى اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربى القديم قد أجاب على مَنْ سأله « أى أبنائك أحب إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى » .

وهذه مسألة نراها فى حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ، واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر يعيش على الكفاف[1] أو على مساعدة أخيه له ؛ ونجد قلبها دائماً مع الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛ ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية[2] ؛ فأحبِبْ مَنْ شئتَ وأبغضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم مَنْ أبغضت .

---

(١) الكفاف : أى ليس فى نفقته فضل إنما عنده ما يكفه عن الناس . قال الجوهرى : كفاف الشىء بالفتح مثله وقَيْسُه ، والكفاف أيضاً من الرزق : القوت وهو ما كفَّ عن الناس أى أغنى فهو لا يفضل عن الشىء ويكون بقدر الحاجة إليه . [لسان العرب ـ مادة : كفف].

(٢) الطبع والطبيعة : الخليقة والسجية التى جُبِل عليها الإنسان . والطباع : كالطبيعة ، مؤنثة [لسان العرب ـ مادة : طبع] .

اقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ[2] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۝٨ ﴾ [المائدة]

فأحبب مَنْ شئتَ ، وأبغض مَنْ شئتَ ، ولكن لا تظلم بسبب الحب أو البغض .

وقد يقول قائل : ولكن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

نقول : اقرأ ما جاء فى نفس رواية الحديث ؛ فقد قال عمر رضى الله عنه ـ بوضوحه وصراحته وجراءته ؛ دون نفاق ـ : أحبك يا رسول الله عن مالى وعن ولدى أما عن نفسى ؛ فلا . فكرر النبى ﷺ قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[3] .

---

(١) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم : أذنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب وجُرْم . قال تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ۝٨ ﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) شناه وشنئه شنئاً وشناة وشنآناً : أبغضه وكرهه قال تعالى : ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۝٨ ﴾ [المائدة] وشانيء : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ [الكوثر] أى : مبغضك وكارهك . [القاموس القويم ١/٣٥٧] .

(٣) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شيء إلا نفسى فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ، قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » أخرجه أحمد فى مسنده (٣٣٦/٤) .

ففطنَ عمر رضى الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقدىٌّ وتكليفى ؛ وفَهِم أنَ المطلوب هو حُبُّ العقل ؛ لا حب العاطفة .

وحب العقل ـ كما نعلم ـ هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما تأخذ الدواء المُرَّ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبٍّ عقلى ؛ رغبةً منك فى أن يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجىء رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى[1] المسلم فى حُبِّ رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أوضح لنا الخطوط الفاصلة بين مبادىء الحب العقلى والحب العاطفى .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضى الله عنه فى نفس المسألة ؛ حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مَرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال واحد ممَّنْ يجلسون معه : هذا قاتل أخيك . فقال عمر : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً : لماذا تزوى وجهك عنى ؟ قال عمر : لأنِّى لا أُحبك ، فأنت قاتلُ أخى . فقال الرجل : أو يمنعنى عدم حبك لى من أىِّ حق من حقوقى ؟ قال عمر : لا . فقال الرجل : « لك أن تحب مَنْ تريد ، وتكره مَنْ تريد ، ولا يبكى على الحب إلا النساء » .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف

---

(١) السمو : الارتفاع والعلو . سما الشىء يسمو سمواً : ارتفع . وتساموا : تباروا . وتساميها : تباريها وتفاخرها . والتسامى : الرِّفْعة والارتقاء . [لسان العرب ـ مادة : سما] بتصرف .

وأخيه هو انفعال طبيعى لا يُؤاخَذُ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛ ولسائل أن يسأل : ولماذا انصبَّ غضبهم على يوسف وحده ؟

ويُقال : إنهم لم يرغبوا أنْ يَفْجعوا[1] أباهم فى الاثنين - يوسف وأخيه - أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ.. ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المُتكاتفون المُتعصِّبون لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوهم ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب أن يَخُصَّنا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبة ، وهذا ما جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ، ولكنهم سدروا[2] فى غيِّهم[3] ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهى قولهم :

---

(١) الفجيعة : الرزية الموجعة . فجعته المصيبة : أوجعته . والفواجع : المصائب المؤلمة التى تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم ، الواحدة فاجعة . [لسان العرب - مادة : فجع] .

(٢) السادر : المتحير ، وهو أيضاً الذى لا يهتم لشيء ولا يُبالى ما صنع . [لسان العرب - مادة : سدر] .

(٣) الغيُّ : الضلال والخيبة . غوى : ضَلَّ . والغواية : الانهماك فى الغَيِّ . والغوى : شديد الضلالة والغواية ، وأغواه : أضلّه وأوقعه فى الغيّ والضلال . [القاموس القويم ٢/ ٦٤].

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ ﴾ [يوسف]

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهما ، ولا بُدَّ أن يعطف عليهم الأب ؛ وحبُّه لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ ﴾ [يوسف]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .

نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشي فيسلك طُرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل مَنْ ينسى شيئاً من الحق .

وسبحانه القائل :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. ⑳⑧② ﴾ [البقرة]

وسبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ⑦ ﴾ [الضحى]

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

وهكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حُبِّ أبيهم ليوسف

وأخيه ؛ ووصلوا إلى نتيجة ضارَّة ؛ لأن المقدمات التى أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة ؛ ولو أنهم مَحَّصُوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لَمَا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التى قالوها :

﴿ إنَّ أبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُّبِينٍ ⑧ ﴾ [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على ألسنة إخوة يوسف :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ(1) أَرْضًا يَخْلُ(2) لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ⑨ ﴾

والقتل هو قمة ما فكّروا فيه من شرّ ؛ ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل ؛ فقالوا : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ⑨ ﴾ [يوسف]

فكأنهم خافوا من إثم القتل ؛ وظنُّوا بذلك أنهم سينفردون بحبٍّ أبيهم ؛ لأنهم قالوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف]

والوجه هو الذى تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الانفعالات .

والمقصود بـ : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف]

---

(1) طرح الشىء وطرح به : رماه . والطَّرَح بالتحريك : البُعْد والمكان البعيد . قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ⑨ ﴾ [يوسف] أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

(2) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ويتجه إليكم بكل عنايته ولا يُشْتغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/٢٠٩] .

هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يُقدِّرون الصلاح ؛ ويعرفون أن الذى فكَّروا فيه غيرُ مقبول بموازين الصلاح ؛ لذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذى أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا نَسُوا أن أمر المَوْت قد أُبهم حتى لا يرتكب أحدٌ المعاصىَ والكبائرَ .

أو : أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنغيص[1] علاقتهم بأبيهم ؛ فحين يخلُو لهم وجهه ؛ سيرتاحون إلى أن أباهم سيعدل بينهم ، ويهبُهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) ﴾ [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءًا من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً ؛ فسيرتاح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم فى الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

---

(١) النغَص : كَدَرُ العيش .. وقد نغص عليه عيشه تنغيصاً أى : كدَّره ، ونغَّص علينا أى : قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه ، وكل من قطع شيئاً مما يحب الازدياد منه فهو مُنغِّص . [لسان العرب ـ مادة : نغص] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ[1] يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ[2] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القائل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى[3] ؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتي الردم فيسدُّ البئر ؛ ولذلك يبنون حول فُوَّهة البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الرَّدْم ؛ ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوى » ، وهكذا تظل المياه في البئر في حالة استطراق .

---

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستر ما اختبأ فيه . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف] وقرئ غيابات بالجمع . [القاموس القويم ٢/ ٦٥] وغيابة كل شيء : قعره . ووقعوا في غيابة من الأرض ، أي : في منهبط منها . [لسان العرب - مادة : غيب] .

(٢) السيار : الكثير السير . والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف] ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة] أي : للمسافرين . [القاموس القويم ١/ ٣٤٠] .

(٣) الطوى : البئر المطوية بالحجارة . يقال : طوى الركية طيًا : عرشها بالحجارة والآجُرّ . [لسان العرب - مادة : طوى] .

وكلمة : ﴿ غَيَابَةِ الْجُبِّ ⑩ ﴾ [يوسف]

أى : المنطقة المَخْفية فى البئر ؛ وعادة ما تكون فوق الماء ؛ وما فيها يكون غائباً عن العيون .

ولسائل أن يقول : وكيف يتأتَّى إلقاؤه فى مكان مَخْفِىٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ⑩ ﴾ [يوسف]

ونقول : إن فى مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التى كانت مُتوقِّدة فى اقتراح بعضهم بقتل يوسف ؛ وفى هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطَّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل(١) لحالته العادية ، وصَحَتْ فيه عاطفة الأخوة ؛ وقال :

﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ⑩ ﴾ [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تمَّتْ تصفية هذه المسألة ؛ فلم يقف صاحب هذا الرأى بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرْحه فى الأرض ؛ بل أخذ يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب ؛ فلم يَقُلْ لهم « لا تقتلوه » ، ولكنه قال : «لا تقتلوا يوسف » .

وفى نُطْقه للاسم تحنين لهم .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٥٢/٤) : « القائل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب. قاله ابن عباس . وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته . وقيل : شمعون » .

ويضيف :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ[1] بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) ﴾

[يوسف]

وكأنه يأمل في أن يتراجعوا عن مخططهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾

وبعد أن وافقوا أخاهم الذى خفَّف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء فى الجب ؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم مُوجِّهاً الكلام لأبيه ، وفى حضور كل الإخوة :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ .. (١١) ﴾ [يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة ؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذى قال ، وأمَّنَ الباقون على كلامه ؛ إما سُكوتاً أو بالإشارة .

ولكى يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

---

(١) التقط الشيء ولقطه : أخذه ليصونه أو لغرض آخر ، ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه نافعاً، قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ .. (٨) ﴾ [القصص] فأخذوه ظناً منهم أنه مفيد نافع لهم . وكذلك قوله ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. (١٠) ﴾ [يوسف] يأخذه بعض المسافرين لينتفعوا به وليصونوه . [القاموس القويم ٢/١٩٨] .

قال موسى عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[2] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

ورَدَّ الحق سبحانه على دعاء موسى :

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا.. (٨٩) ﴾ [يونس]

والذى دعا هو موسى ، والذى أمَّنَ على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذى قال :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التى وردتْ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو واحد من إخوة يوسف ، وأمَّن بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿ مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾[يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم فى ذلك ، ولم يوافقهم الأب .

---

(١) طمس الشيء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو محاه وأزاله . وطمس عينه : أعماها . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أنزل عليها ما يمحوها ويهلكها . [القاموس القويم ١/٤٠٦] .

(٢) شد الحبل : ربطه ربطاً محكماً وشد أسره : قوّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ، أى أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان] . أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ .. (٢٠) ﴾ [ص] أى : قوّيناه . وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أحكم الغطاء واربطه بقوة على قلوبهم وهو دعاء عليهم . [القاموس القويم ١/٣٤٤] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى أنهم سوف ينتبهون له ، ولن يحدث له ضرر أو شرّ ؛ وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب .

ويستمر عَرْض ما جاء على لسان إخوة يوسف :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ(١) وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا بعلَّة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف فى أوان الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحبَّب ومسموح به ؛ لأنه ما زال تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفضِّل الشرع أن يكون اللعب فى مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً ؛ كأن يتعلمَ الطفلُ السباحةَ ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهى الرماية(٢) وهكذا نفهم معنى اللعب : إنه شُغُل لا يُلهِى عن واجب ، أما اللهو(٣) فهو شُغُل يُلهِى عن واجب .

---

(١) رتع يرتع : أكل وشرب كما يشاء فى خصب وسعة . وأصله : أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أطلق لشهوات بطنه العنان . [القاموس القويم ١/ ٢٥٤] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مر النبى ﷺ بنفر يرمون ، فقال : رمياً بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً » أخرجه أحمد فى مسلم (١/ ٣٦٤) وأخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بنحوه .

(٣) لها يلهو لهْوا : تسلَّى وشغل نفسه بما فيه لذتها وسرورها . أو تسلى بما لا يفيده . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الجمعة] واللهو هنا : الغناء والطبل والزمر الذى كان يصاحب عودة التجار وقت الصلاة . [القاموس القويم ٢/ ٢٠٥].

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يُؤذِّن المؤذن ؛ ويأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة فى ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لَصَار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

وكلام الأب هنا لا بُدَّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التى يخاف فيها من فِراق يوسف لقلَّة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهى :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يوسف]

وقال بعض الناس[1] : لقد علَّمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلحظ أن يعقوب جعل للأخوة لَحْظاً ؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [يوسف]

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٧٠) : « أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه » . وقد أورد السيوطى فى « الدر المنثور » (٤/ ٥١٠) آثاراً فى هذا الشأن ، فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفى فى الطيوريات عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقنوا الناس فيكذبوا ، فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب » .

وهذا ليُربِّي فيهم مواجيد الأخوة التي تفترض ألاَّ يتصرفوا مع أخيهم بشرٍّ ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرٍّ إلا إذا غفلوا عن أخيهم .

ونلحظ في ردِّهم عجزَهم عن أنْ يردوا على قوله :

﴿ إنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [يوسف]

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذي دفعهم إلى الحقد على يوسف ، وردّوا فقط على خوفه من أنْ يأكله الذئب ، وجاء القرآن بما قالوه :

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم ؛ كي يأذن في خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم مُحيطون به كعُصْبة ، وأعلنوا أنه إنْ حدث ذلك فهم سيخسرون كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا الهوان[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣٤٦٢/٤) : « قوله ﴿ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾ [يوسف] أي : إنا لخاسرون في حفظ أغنامنا ، أي : إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا » .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا[1] أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

وقوله الحق :

﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف]

يدلنا على أن تلك المسألة أخذتْ منهم مناقشة ، فيها أخْذٌ وردٌّ ، إلى أن استقروا عليها[2] .

وألهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحى كما نعلم هو إعلام بخفاء .

وسوف يأتى فى القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة فى مصر ودخلوا عليه أمسك بقدح ونقر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدح ؛ إنه يقول : إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا[3] .

---

(١) جمع أمره : عزم عليه أو أحكمه . قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ ﴾ [طه] أى : عزم عليه وأحكمه . وأجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . وأجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [يوسف] أى : اتفقوا . [القاموس القويم ١ / ١٢٧] .

(٢) ذكر القرطبى فى هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه ، وسلَّمه إلى روبيل وقال : يا روبيل إنه صغير وتعلم يا بنى شفقتى عليه ، فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ، ثم عَجِّل بردِّه إلىَّ . قال : فأخذوه يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر [انظر : تفسير القرطبى ٣٤٦٢/٤] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون . جىء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فَطَنَّ فقال : إنى ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يُقال له يوسف ، يدنى دينكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب ، فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره خبركم » (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥١١/٤)

وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يَلْحَظْ إخوته هذا الوحى .

ونقول : إن الوَحْى إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير المُوحَى إليه ، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة فى مصر ؛ بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم ؛ لأنهم قالوا له لحظتها :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ[1] أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧) ﴾ [يوسف]

والمقصود بالوحى فى هذه الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ هو إيناس الوَحْشة ؛ وهو وارد إلهى لا يرده وارد الشيطان ؛ والإلهام وارد بالنسبة لمَنْ هم غير أنبياء ؛ مثلما أوضحنا الأمر الذى حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه فى اليم[2] .

---

(١) يقصدون يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبى أمه فكسره . وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبى نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ـ فيما بلغنى ـ أن عمته ابنة إسحاق وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به ولَهٌ فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب فأتاها فقال : يا أخية سلمى إليّ يوسف فو الله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة قالت : فو الله ما أنا بتاركته ثم قالت : فدعه عندى أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسلينى عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت . اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت : والله إنه لى لسلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك . فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، راجع تفسير ابن كثير ٤٨٦/٢ .

(٢) يقول تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِى التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِى الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه] .

والوارد الإلهى لا يجد له معارضة فى النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنِسُ وحشته[1] حين ألقاه إخوته فى الجُبِّ الذى ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقته لبلده التى درج[2] فيها وأُنْسه بالبيئة التى اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوة لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهمّ من الذى كنت فيه ؛ وأن غُرَماءك ـ وهم إخوتك ـ سوف يُضطَّرون لدقِّ بابك ذات يوم يطلبون عَوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُبِّ الذى ألقوْه فيه ، وبقى أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداء دقيقاً معبراً عن الانفعالات التى توجد فى النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا

---

(١) ومما ورد فى هذا ما نقله القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٥/٤) : « قال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الجب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملا ، ويا مفرج كل كربة ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، ايتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحداً سواك .

فرددها يوسف فى ليلته مراراً ، فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ » .

(٢) يقال للصبى إذا دَبَّ وأخذ فى الحركة : درج . ودرج الشيخ والصبى يدرج فهو دارج : مشيا مَشْياً ضعيفاً ودَبًّا . [لسان العرب ـ مادة : درج] .

بأخيهم ، وأخذوه وألقوه فى الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان ضنيناً[1] أن يأتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبته ؛ فقالوا : نؤخر اللقاء لأبينا إلى العشاء : والعشاء مَحَلُّ الظلمة ، وهو ستر للانفعالات التى توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم ؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ؛ بل بحديث مُخْتلق[2] .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتتكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم ؛ فقالوا : الليل أخْفَى للوجه من النهار ، وأستَر للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عشاءً ؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى غريزى فطرىّ ؛ ليس للإنسان فيه مجال اختيار ؛ ومَنْ يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُك عينيه ، أو يأتى ببعض ريقه ويُقرِّبه من عينيه ، ولا يستر ذلك إلا أن يكون الضوء

---

(١) ضننت بالشئ أضن : بخلت به ، وهو ضنين به . ورجل ضنين : بخيل . والضِّنَّة والضَّن : الإمساك والبخل . وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التكوير] فهو لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء . [راجع لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلَّقه واختلقه وافتراه : ابتدعه. الاختلاق : الكذب ، وهو افتعال من الخلق والإبداع كأن الكاذب تخلَّق قوله . [لسان العرب ـ مادة : خلق]

خافتاً ؛ لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمثِّلون البكاء[1] .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التى أعطاها لذاته ، ولم يُعْطها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذى يميت ويحى ، وهو الذى يُضحك ويُبْكى .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) ﴾ [النجم]

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزى وآخر عربى ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صينى وآخر عربى أو فرنسى ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افتعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضاحك ؛ وإذا ما افتعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفتعل الضحك أو البكاء . والذى يفضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل فى سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ ليبايعوه ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٦/٤) : « قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ، كما قال حكيم :

إذَا اشتبكتْ دُمُوعٌ فى خُدودٍ تبيَّن مَنْ بكَى مِمَّنْ تباكَى ».

نفسه ؛ وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء فى معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عنى نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فمَنْ شاء فليذهب واتركونى »[1] .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فَوْرَ أنْ دخلوا على أبيهم :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ[2] وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

كلمة : ﴿ نَسْتَبِقُ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف]

تعبر عن بيان تفوُّق ذات على ذات فى حركة ما ؛ لنرى من

---

(١) ذكر ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن على رضى الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله فى ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدوننى ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتى ثم اذهبوا فى بسيط الأرض فى سواد هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يريدوننى ، فلو قد أصابونى لهوا عن طلب غيرى ، فاذهبوا حتى يفرج الله عز وجل » .

(٢) استبقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستبقا الشيء : تباريا فى الجرى نحوه للوصول إليه . ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف] أى : نتبارى فى الجرى والسبق . ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .. ﴿١٤٨﴾ ﴾ [البقرة] تباروا فى الوصول إليها أو فعلها قبل غيركم . [القاموس القويم ٣٠٢/١] .

سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان فى الجرى نرى مَنْ فيهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق فى حركة بآلة ؛ كأن يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف ؛ ويأتى آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ ومَنْ يسبق منهما فى إصابة الهدف يكون هو المتفوق فى هذا المجال .

وقد يكون الاستباق فى الرمى بالسهام ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غُصْن مَرِن ، يلتوى دون أن ينكسر ؛ ومُثبَّت عليه وتر ، ويوضع السهم فى منتصف الوتر ، ليشده الرامى فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمى ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف» .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التى يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامى .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك حلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لُعْبة لا تُلهيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يَجِدُّ من أمور ؛ فإذا التقى بعدو نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب[1] الذى لا يَنْهى عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لَعِب حلال .

---

(١) اللعب قد يكون محموداً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة ، أما إذا كان اللعب قد يلهى الإنسان عن الواجبات فهو مذموم ، واللهو لا يكون إلا مذموماً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عَدوَّان ؛ وبينهما قنبلة موقوتة ؛ ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر فى محاولة كل فريق فى إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلْهِى لعب الكرة عن واجب ؛ فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعُوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وأبناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا[1] .. (١٧) ﴾ [يوسف]

وفى هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذى أذِنَ بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ .. (١٢) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾ [يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ؛ وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

---

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ويجمع على أمتعة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء ينتفع بها ، وقال تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ .. (١٠٢) ﴾ [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأدوات للحرب ومال ونحو ذلك . [القاموس القويم ٢/٢١٥] .